باب المناظرة والمراسلة

تاريخ المصاحف

بقلم الدكتور محمد توفيق افندي صدقي الطبيب بسجن طره

لما لهذا الموضوع من العلاقة الكبرى بجميع مباحثي في الاسلام التي سبق نشرها في المنار الاغر رأيت أن افيض القول فيه بما يزيل ماران على قلوب كثير من الناس من الشبهات والاشكالات التي يقذف بها المسلمين دعاة من المسيحيين لا يميزون بين الغث والسمين. ولايضاح المسألة إيضاحا تاما رأيت أن أضع مقدمة هامة، تمهيدا للبحث، ودعامة للفحص، فنقول: — غير خاف على أحد أن الأمة العربية قبل الاسلام كانت أمة أمية يقل فيها وجود من يعرف القراءة والكتابة معرفة جيدة، وكان جل اعتمادهم في جميع ما يروونه من أنسابهم وأشعارهم وغيرها على حفظهم لها في صدورهم. ولم يعرف أنه كان عندهم كتاب ما من الكتب في أي موضوع كان، وغاية ما كانوا يفهمونه من لفظ (كتاب) أنه أي صحيفة مكتوب عليها من نحو الجلود أو العظام أو الحجارة أو الجريد، بل إن الصالح للكتابة من كل من هذه الاشياء كان لديهم قليلا ولذلك لم يستغنوا بنوع واحد منها عن باقيها، ولم يكن عندهم الورق الذي نعرفه الآن، وهذا اللفظ ما كان يطلق عندهم إلا على ورق الشجر وعلى رقاع من الجلود رقيقة، والاطلاق الاخير مستعار من الاول.

ولانجد في اللغة العربية اسما خاصا بما يشبه ورقنا المعروف سوى لفظ واحد وهو (الكاغد) وهو فارسي معرب وقد ادخلته العرب في لغتها بعد النبي صلى الله عليه وسلم فلذا لم يرد في كلامهم قبله عليه السلام ولا في عصره ولم يرد في أحاديثه ولم نسمع أنه كان مما يكتب عليه القرآن في حياته عليه السلام. والغالب أن هذا اللفظ دخل في اللغة العربية بعد فتح المسلمين لبلاد فارس. وأما لفظ القرطاس فهو أقدم في اللغة وورد في القرآن الشريف وكان معناه عندهم الصحيفة من الاشياء التي كانوا يستعملونها للكتابة ثم اطلقوه فيما بعد على الكاغد أيضا

حينما عرفوه وصاروا يسمون به كل ما يكتبون عليه من الصحف . هذا وان ما ورد في كلامهم من لفظ (كتاب) كانوا يريدون به ما يطلق عليه في عرفنا اليوم لفظ (خطاب) أو جواب ومنه قوله تعالى في قصة سليمان (٢٧ : ٢٨ إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم) ومنه كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ومثل الكتاب السفر والزبور والسجل والدفتر فان معانيها كلها متقاربة وما كانوا يفهمونها كما نفهمها الآن . ولذلك لما جمع القرآن بعد النبي اختلفت الصحابة في ماذا يسمونه به وتوقفوا لانهم لم يعهدوا مثله من قبل ثم استقر رأيهم أخيرا على تسميته بالمصحف تبعا لاهل الحبشة في تسمية مجموعاتهم بذلك والمصحف الكتاب بالمعنى الذي نفهمه نحن الآن عند الاطلاق لانه مأخوذ من أصحف أي جمع الصحف . وكل صحيفة كتاب عند العرب كما ذكرنا وكانت أيضا كتب بعض الامم غير العربية عبارة عن قطع من الجلود أو القماش يختلف عرض الواحدة منها من ١٢ الى ١٤ قيراطا وكانوا يلفونها على قضيب من الخشب ملصق بأحد أطرافها كما تلف الخرائط الجغرافية الآن . وهذا هو الطي المذكور في قوله تعالى (٢١ : ١٠٤ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب) . ولا تزال التوراة مطوية كذلك عند السامريين الى اليوم

هذا الذي تقدم ليس خاصا بمشركي العرب بل يشمل أيضا أهل الكتاب منهم . ولذلك لا نسمع بوجود نسخة كاملة من التوراة أو الانجيل بينهم كالنسخ الموجودة الآن . ولم يكن عندهم سوى أجزاء قليلة منهما مكتوبة على قطع متفرقة من الجلود أو العظام أو الخشب أو نحوه . فلذا وصفهم القرآن الشريف بقوله (٣ : ٢٣ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) وخاطبهم بقوله (٥ : ١٥ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) وقال فيهم (٥ : ١٣ ونسوا حظا مما ذكروا به) وقال لهم (٦ : ٩١ قل من أنزل الكتاب (١) الذي

(١) حاشية للكاتب — المراد بالكتاب في جميع هذه الآيات الوحي المكتوب بقطع النظر عن كيفية كتابته ووضعه كقوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) وقوله (كتاب أنزل اليك) والقرآن حينئذ لم يكن تاما ولا مجموعا . وانما المراد ما كان يوحى في ذلك الوقت فيكتب

جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس) أي صحفا متفرقة (تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) وقال أيضا (٢ : ٧٩ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم) . وهذا كله يدل على أن كتبهم المقدسة ما كانت تامة ولا محصورة بين دفتين بحيث لا تقبل الزيادة ولا النقصان وانما كانت مبعثرة في رقاع منثورة وأن بعض صحفهم كان حقا والبعض الآخر كان باطلا . أما ما ورد في القرآن من نحو قوله تعالى (٥ : ٤٣ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) فمعناه أن عندهم أجزاء من التوراة فيها حكم الله في المسألة التي تحاكموا فيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكما يطلق لفظ القرآن ويراد به أجزاء منه كذلك يطلق لفظ التوراة أو الانجيل ويراد به بعضها أو أجزاء منهما . وهذه مسألة شائعة في القرآن الشريف وفي اللغة . ومن ذلك قوله تعالى (٢ : ١٨٥ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) أي بعضه أو جزء منه

قدمنا لك هذه المقدمة لتعلم أن العرب ما كانت تعرف الكتاب ولا الورق بمعنيهما عندنا . وأوضحنا لك فيها درجة معرفتهم القراءة والكتابة . وذكرنا لك ما كانوا عليه يكتبون

بعث محمد صلى الله عليه وسلم فيهم وحالتهم كما علمت وأوحى اليه هذا القرآن ليبلغهم إياه فانظر ماذا فعله هذا الرسول الأمين ، حتى نشر بينهم الكتاب المبين ،

علم قوة ذاكرتهم واعتمادهم عليها في نقل أخبارهم وأشعارهم حتى أن كثيرا منهم كان يسمع الابيات من الشعر أو القصيدة الطويلة تتلى عليه فيحفظها من أول مرة فداوم صلى الله عليه وسلم على حضهم على تلاوة القرآن وبالغ في حثهم على حفظه وضبطه . وفرض عليهم قراءته في الصلوات وبقي على هذه الحالة نيفا وعشرين سنة حتى كثر فيهم القراء وكانت السورة الواحدة يحفظها الالوف من الناس والقرآن كله يحفظه الكثيرون منهم . لم يكتف صلى الله عليه وسلم بذلك بل أمر بكتابته واختار طائفة منهم لكتابته له على ما تيسر لهم اذ ذاك من الجلود والعظام والجريد والحجارة وغيرها مما كانوا يعرفونه . وأكثر من ترغيبهم في

التعلم ومدح القراءة والكتابة نحو قوله « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » ومثل ذلك في الأحاديث كثير . ورد في القرآن الشريف أيضا قوله تعالى (٦٨ : ١ ن والقلم وما يسطرون) وقوله (٩٦ : ٣ إقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) وذم الله تعالى أهل الكتاب بقوله (٢ : ٧٨ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون) وألزم تعالى المؤمنين بكتابة الدين في الآية المشهورة في آخر سورة البقرة . وبذلك وجدت فيهم الرغبة في تعلم القراءة والكتابة وأخذ عدد الكاتبين بينهم يزداد شيئا فشيئا . وكتب كل ما نزل من القرآن كثير من المسلمين في عهده عليه الصلاة والسلام . ولم يمت إلا بعد أن كانت جميع السور مرتبة الآيات مكتوبة في السطور عند الكثير منهم محفوظة في صدور الجماهير وبعد أن سمعوها منه مرات عديدة في الصلوات والخطب وغيرها وسمعها هو أيضا منهم . والخلاصة أن النبي عليه السلام اتبع أقرب الطرق لتعميم نشر القرآن المجيد بين جميع أفراد الامة العربية وعمل أحسن ما يمكن عمله بالنسبة لمعلوماتهم وحالتهم .

سمت نفوسهم بعد ذلك العلى بما بثه فيهم واستدت فرقي . فلما كثر اختلاطهم بمن جاورهم من الامم أخذوا ينقبون ويفتشون في أحوالهم بعيون مبصرة وعقول مفكرة كي يتمكنوا على جديد يقتبسونه أو إصلاح الى بلادهم يسوقونه فبصروا بعالم يبصروا به من قبل . ووجدوا أن لتلك الامم طريقة اخرى في تدوين معلوماتهم لم تكن تخطر على بالهم . وهي أن يكتبوها على صفحات صحف من نوع واحد . يضمون بعضها الى بعض مرتبة على حسب ترتيب عباراتها وربما رأوا أنواعا اخرى من القراطيس أحسن من التي كانوا يعرفونها كأوراق البردي بمصر مثلا

دعاهم داعي الفزع عند قتل سبعين من القراء يوم اليمامة إلى المبادرة والاسراع في جمع القرآن على طريقة تلك الامم خوفا عليه من الضياع من تلك الرقاع المختلفة الانواع فعقدوا في الحال اجتماعا واستقر رأيهم اجماعا على العمل على تلك الطريقة وهكذا جمع القرآن ووجد بين العرب أول كتاب بالمعنى المفهي فهمه نحن الآن وتحقق وعد الرحمن (١٥ : ٩ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له

حافظون) اختلاف المسلمين في ترتيب سور القرآن وطرق قراءته . وتبع ذلك اختلاف مصاحفهم لأن الرسول لم يلزمهم باتباع ترتيب مخصوص في السور . ولم يجمعهم على قراءة واحدة . سور القرآن كل منها ككتاب قائم بذاته كما قال تعالى (٩٨: ٢ رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) فليس ثم فائدة كبيرة في التزام ترتيب مخصوص ولفظ (سورة) مأخوذ من سور المدينة سميت به القطعة المخصوصة من القرآن لأنها طائفة مستقلة بذاتها . فكأنه صلى الله عليه وسلم ترك بين المسلمين ١١٤ كتابا كل منها محفوظ مكتوب مرتبة آياته . وجمعها بالطريقة الحاضرة لم يكن معروفا في عهده وإنما حدث بعده بقليل وإن كانت في زمنه مجموعة عند بعضهم في الصحف المتنوعة التي ذكرناها

أما اختلاف القراآت فهو نوعان : اختلاف بسبب اللهجات كالامالة وعدمها واختلاف آخر في الكلمات كتغيير شكلها أو اعرابها أو بعض حروفها أو نحو ذلك . ولكل من النوعين فوائد ففوائد الاختلاف بسبب اللهجات هي (١) تسهيل نطقه وفهمه وحفظه لقبائل العرب المختلفة (٢) إظهار أنهم يعجزون جميعا عن الاتيان بمثل سورة منه كما تحداهم بذلك ولو بلغاتهم المختلفة وأن عجزهم عن المعارضة ليس ناشئا عن نزوله بلهجة واحدة لا يعرفها كثير منهم . وفوائد اختلاف الكلمات هي (١) تسهيل حفظه على كل أحد . وبيان ذلك أن من أراد حفظ القرآن كثيرا ما يسبق لسانه بنطق مخصوص . فإذا علم أن هذا خطأ جاهد نفسه لتقويم لسانه ولكن اذا علم أن قراءته جائزة لم يحتج الى هذا العناء مثلا اذا أراد أن يحفظ قوله تعالى (٨٩: ١٧ كلا بل لا تكرمون اليتيم ١٨ ولا تحاضون على طعام المسكين) قد يسبق لسانه ويقول (كلا بل لا يكرمون اليتيم ولا يحضون على طعام المسكين) فيجهد نفسه في العدول عن ذلك ولكنه إذا علم أن هذه قراءة جائزة لا يحتاج إلى التعب . وهذا الأمر يدركه جيدا من عانى حفظ القرآن الشريف . ومن ألزم باصابة غرض واحد لا غير ليس كمن أبيح له إصابة أي غرض من بين بضعة أغراض . ولا تنس ما لتسهيل حفظ القرآن على الأمة من الفوائد فانه أعظم طريقي القرآن في نقله وروايته وخصوصا في الأزمنة القديمة وبين الأمم الساذجة (٢) تكثير

المعاني . فبتعدد القراآت تكثر المعلومات وتزداد الفوائد . وقد يكون بعض المعاني مبينا للبعض الآخر (٣) تخفيف بعض الأحكام فمثلا قوله تعالى في آية الوضوء (٥: ٦ وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم) بالكسر يفهمنا أن الغسل المفهوم من قراءة الفتح غير واجب على التعيين وأن المسح يكفي

فلهذه الاسباب ونظيرها كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرئ المسلمين القرآن بأوجه مختلفة ولذلك قال كما تواتر عنه (أنزل القرآن على سبعة أحرف) الحديث ولفظ السبعة تستعمله العرب أحيانا للمبالغة في الكثرة فيحتمل أن يكون هذا هو المراد هنا أو أن المراد سبع لهجات العرب الشهيرة وهو لا ينافي أن هنالك قراآت أخرى غير اللهجات إذ لفظ الحديث لا يفيد القصر

وقع الخلاف بين المسلمين في هذه القراآت الى أن اشتد في زمن عثمان رضي الله عنه اذ كان بعضهم اذا تلقى قراءة وسمع من غيره ما يخالفها نازعه في ذلك واتهمه بالتحريف فخشي أن يحصل بينهم من الاختلاف في القرآن ما حصل بين أهل الكتاب . ورأى أن يجمع المسلمين على مصحف واحد ينسخون عنه ويرجعون اليه في ضبط مصاحفهم حتى لا يكون فيها اختلاف ولا تكثر فيها هذه القراآت وأخبر جمهورا عظيما من أصحاب رسول الله بذلك فوافقوه على رأيه فأمر بكتابة المصحف على طريقة قريش في الرسم وكان الكتاب فريقا من الصحابة أيضاً. فكتب عدة مصاحف بهذه الطريقة بعد التحري والتدقيق ومراجعة ما كتب قبل ذلك وبعد السماع من الحفاظ وإن كان الكاتبون هم أيضاً من الحفظة ثم أرسلت هذه المصاحف إلى الآفاق التي انتشر فيها الاسلام وفيها الجماهير من الصحابة ومن أخذ القرآن عنهم حفظا وكتابة . فوافقوا جميعا على اعتمادها والتعويل عليها وأعدموا غيرها مما عندهم . وكان ذلك بعد وفاة النبي بخمس عشرة سنة (أي سنة ٢٥ هجرية)

هذا ومن علم طباع العرب وغلظها وشدة إيمانهم وتمسكهم بدينهم . وعرف ما كان عليه الخلفاء الراشدون من الاخلاق وأنهم ما كانوا ليستبدوا بالامر في شيء حتى لو ارادوه لما قدروا عليه — وعرف حال عثمان ومسبب قتله ، من عرف ذلك

كله أيقن أنهم لو كانوا وجدوا في مصاحف عثمان عيبا لرفضوها ولأبيرت حروب وأريقت دماء وكان دم عثمان في أولها ولارتد كثير من الناس عن الاسلام لهذا السبب ولعاب المسلمين بتحريف القرآن من خالطهم أو دخل فيهم من أهل الكتاب وغيرهم ولما اتفقوا جميعا على قبول هذه المصاحف ولوجدت مصاحف مختلفة بينهم الى اليوم . فعدم حصول شيء من ذلك يدل على أن هذه المصاحف هي عين ما تلقوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخصوصا لأن الذين تلقوها بالقبول ما كانوا جاهلين حرفا واحدا من القرآن بل كانوا حافظين له حفظا جيدا في الصدور من قبل وجود هذه المصاحف وكثير منهم كانوا ممن تلقوه كله أو بعضه مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم

هذه المصاحف العثمانية لم تكن منقوطة ولا مشكولة ورسمها في كثير من المواضع يخالف ما اصطلح عليه الناس فيما بعد من قواعد رسم الكلمات العربية . ولكن جرى المسلمون على تقليد هذا الرسم في جميع بقاع الأرض على مخالفة بعضها وكثرة من القواعد محافظة منهم على عمل الصحابة رضوان الله عليهم . وتحاشيا لعمل أي تصحيح أو تحرير في الكتاب ولم يخرجوا عنه إلا في الأزمنة الأخيرة في كلمات قليلة كتبوها على مقتضى طريقتهم . على أن أكثر مصاحفهم لا يزال إلى اليوم كالكتبة الأولى لكنها في الغالب منقوطة مشكولة

أما القراآت فاشتهرت مختلفة بين المسلمين إلى زمننا هذا فهم وإن كانوا أجمعوا على المصاحف العثمانية إلا أن القراآت التي كانوا يقرؤن بها من قبل — هي وكانت غير مخالفة للرسم العثماني مختلفة يعتد بها — استمروا على القراءة بها فيما بعد . أما التي تخالفه فأخذت تتلاشى من بينهم شيئا فشيئا . وعليه فوجود المصاحف العثمانية أفاد المسلمين ثلاث فوائد (الأولى) اجماعهم على مصحف واحد في الكتابة (الثانية) تقليل الاختلاف بينهم في القراءة (الثالثة) اتفاقهم على ترتيب مخصوص للسور ولعل هذا الترتيب كان يستحسنه الرسول وإن لم يوجبه كما سبق

تواتر من هذه القراآت المختلفة سبع روى كلا منها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الجم الغفير من أصحابه وأخذ عنهم في البقاع المختلفة الجماهير من التابعين

فأخذ عنهم من بعدهم وهكذا الى اليوم . وهذه القراآت المتواترة يحتملها رسم المصاحف ولا تخالفه كما قلنا مخالفة يعتد بها أو صريحة اذا جردت من النقط والشكل كما كانت

اشتهر بين التابعين ومن تبعهم أناس باتقان هذه القراآت وتعليمها لغيرهم فنسبت اليهم وسموا أئمتها وان كانت متواترة بين المسلمين في جميع البلاد وهؤلاء هم عبد الله بن كثير بمكة وعبد الله بن عامر بالشام وعاصم بالكوفة وكذلك حمزة والكسائي ونافع بالمدينة وأبو عمرو بن العلاء بالبصرة وفيهم الثلاثة الاول تابعون

بقي المصحف غير منقوط ولا مشكول الى أن كثرت الأعاجم واختلطت بالعرب ففشا فيهم اللحن حتى اضطروا الى ضبطه فكان أول من وضع عليه الضبط أبو الاسود الدؤلي في أوائل حكم بني أمية وكان ضبطه أن يضع نقطة فوق الحرف ان كان مفتوحا وتحته ان كان مكسورا وبجانبه ان كان مضموما واستمرت الحال على ذلك الى زمن الخليل بن أحمد النحوي المشهور فوضع للمصحف شكلا آخر كان أساسا للشكل الحالي الذي جرى عليه المتأخرون . وكانت وفاة الخليل هذا سنة ١٧٠ للهجرة

أخذت طرق كتابة المصاحف تتحسن شيئاً فشيئاً الى أن اخترعت المطابع فطبع أول مصحف في مدينة همبورغ بألمانيا سنة ١٦٩٤ للميلاد أي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري وبعد ذلك انتشرت المصاحف المطبوعة في العالم وحلت محل المنسوخة باليد وقد أخذوا الآن يرسمونها بواسطة المصورات الشمسية (الآلات الفتوغرافية) وهكذا حفظ الله تعالى كتابه حتى وصل الينا بدون تحريف ولا تبديل . وكان المصحف في جميع هذه الأطوار المختلفة التي وصفناها كلها مهيمنا عليه بآلاف الالوف من الحفظة في جميع البقاع الاسلامية ولا تزال الحال كذلك الى عصرنا هذا مع ضعف المسلمين وتأخرهم . ومن عجيب عناية الله بهذا الكتاب المجيد أن قيض لنا اليوم في مصر من يحثنا من غير أهل ديننا ومن غير جنسنا على تعميم الكتاتيب في جميع الاقاليم من بعد أن ظننا أن زمن الحفظة انقضى أو كاد ينقضي من بيننا فأجيب دعاء الداعي الى ذلك وانتشرت الكتاتيب في البلاد وكثرت الحفاظ مرة اخرى وتجدد عندنا الوف من الاطفال يحفظونه

كله في صدورهم فضلا عن الرجال والشيوخ

نظرنا في هذا الكتاب المتواتر عن صاحبه نظرة فأيقنا سببه بدون نظر الى أي شيء سواه من صدقه عليه السلام في دعواه وانه مبلغ عن الله (راجع مقالنا الدين في نظر العقل الصحيح). ثم وجدنا فيه ان الله يقول (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) فعلمنا أن كل رواية يفهم منها أن القرآن ضاع منه شيء لابد أن تكون موضوعة مدسوسة وان لم يتضح هذا الامر من سندها لانها تنافي ذلك القول المتواتر عن النبي الصادق . على أن جمع هذه الروايات منقولة عن الآحاد وقد اتضح كذب كثير من رواتها وهي أيضا معارضة بأمثالها كالذي روي عن ابن عباس رضي الله عنه في صحيح البخاري أنه قال « ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما بين الدفتين » وناهيك بابن عباس ثقة في هذا الموضوع . وقد أجمع المحققون من المسلمين أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر فما زعم الآحاد أنه كان قرآنا وضاع أو نسخ لا يقبل منهم (راجع مقالتنا في الناسخ والمنسوخ) فقد وجد بين الرواة من هو ضعيف الفهم أو سخيف الرأي أو كذوب يريد تشكيك المسلمين في دينهم أو يريد أن يؤيد دعوى أو مذهبا له بأمثال هذه الروايات ولكن العقلاء لا يقبلونها لئلا يؤديهم ذلك الى رفض المتواتر فيكونوا ممن يرجح الدلالة الظنية على الدلالة المقطوع بها ومن كان كذلك كان من الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

بقي علي نقطة واحدة في هذا الموضوع لابد لي من الكلام عليها قبل الانتهاء منه وهي دعوى بعض الجهلة الغافلين أن في القرآن لحنا ويذكرون من ذلك قوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى الآية) وقوله (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والموتون الزكاة) لان مقتضي الظاهر نصب الصابئين ورفع المقيمين الصلاة طبقا لقواعد النحو المعروفة . وما مثلهم في هذه الدعوى الا كمثل تلميذ في مكتب سمع من استاذه بعض نظريات يفسر بها ظواهر وجودية طبيعية فظن أنه عرف كل شيء وأن استاذه لا يخفي عليه خافية وبعد ذلك رأى في

الوجود شيئاً يخالف ما وضعه له المعلم من القواعد فصاح قائلا : الطبيعة أخطأت ، النظام اختل ، الكون فسد لانه خالف قواعد استاذي : وما درى أن عقله في الحقيقة هو الذي اختل وفسد فكذلك شأن هؤلاء القوم . القرآن ينبوع الفصاحة والبلاغة وحجة اللغة الناهضة وهو أساس ما وضع من القواعد النحوية بعده فلا يليق أن نلزمه بالجاري عليها وأن نجعلها أصلا له ونحكم بخطئه إذا هو خالفها بل الواجب إذا لم ينطبق شيء منه على بعضها ان نعلم أنها معيبة أو أنها غير وافية بالغرض في بعض المسائل لعدم احكام وضعها هذا اذا لم يمكنا التطبيق . وما من لغة الا وفي أشهر كتبها القديمة وأبلغها ما يخالف ما وضع من القواعد فيها بعد حتى يضطر الواضعون الى استثنائه أو تطبيقه عليها بوجه ما وكذلك فعل علماء اللغة العربية في أمثال هذه الآيات حتى أجروها على قواعدهم كما هو مبين في التفاسير ولا حاجة بنا لنقل ذلك هنا لعدم أهميته .

فان قيل نحن لا نقول ان هذا الخطأ كان في أصل القرآن وانما هو من نساخ المصاحف في زمن عثمان قلنا ان هؤلاء النساخ كانوا من الفصحاء الذ فكيف يقعون في هذا الخطأ ويتفقون عليه في جميع المصاحف التي كتبوها وأرسلوها الى الأقطار الاسلامية بحيث لا يوجد مصحف واحد خالياً من الغلط في هذه الآيات بعينها ؟ وكيف تتفق الحفظة في جميع الأزمنة على قراءة هذه الألفاظ المتنازع فيها كما كتبت في المصاحف مع العلم بأن القراء انما يتلقون قراءتهم عمن قبلهم بقطع النظر عن مرسوم الخط وعما وضع من القواعد النحوية وقد توارثوا هذه القراآت بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل وجود مصاحف عثمان كما بينا ذلك فيما سبق ؟ ومن علم عناية المسلمين بالتجويد وضبط القراآت واحكام نطق اللهجات المختلفة وأنهم لا يأخذون ذلك من الكتب بل بسماع من أتقنها ممن تقدمهم ، علم فساد أمثال تلك الانتقادات الباردة وسقوطها

وصفوة المقال أن القرآن وصل الينا بدون تحريف حرف واحد منه أو تبديله فهو مكتوب اليوم كما كتبه الصحابة أنفسهم مقروء كما قرأه النبي صلى الله عليه وسلم . ولا نعرف كتاباً آخر في الدنيا بلغت العناية به من أهله مبلغها

بالقرآن فان الكتب الأخرى التي نعرفها لا يخلو كتاب منها من الوصمات الآتية كلها أو بعضها (١) أنها لم تكتب في زمن الآتي بها أو لم يعرف باليقين من هو (٢) لم تحفظ في الصدور لا من العامة ولا من الخاصة (٣) لم تكن نسخها كثيرة. وفي أغلب الأزمنة القديمة لم تكن في أيدي العامة (٤) رواها الآحاد واختلفت رواياتهم (٥) فقدت وانقطع سندها اما بسبب الارتداد العام من أصحابها أو بسبب الاضطهادات الشديدة وقصد الاعداء ابادتها واحراقها (٦) وجد أمثالها معارضا لها وكثير منها لا مرجح عليها بزيادة فيها في قوة اسناده (٧) وجود بعض فقرات فيها تدل على بطلان النسبة الى من نسب اليه الكتاب (٨) مملوءة بخطإ النساخ (٩) مملوءة بالتناقض والزيادة والنقصان والتبديل (١٠) وجود اختلافات بين نسخها قديما وحديثا (١١) اختلاف الطوائف في قبول بعضها أو رفضه بل اختلاف الطائفة الواحدة في قبول بعض الكتب أو ترجمتها في بعض الأزمنة ورفضها في الأخرى (١٢) وجود ما يقطع بعدم صحته فيها والغلطات التاريخية والعلمية وغيرها واشتمالها على ما ينافي الآداب ويفسد الأخلاق (١٣) وجود كثير من اللغو فيها وما لا فائدة فيه وما يناقض البراهين العقلية القطعية (١٤) وجودها منذ أزمنة بعيدة وخلو أهلها اذ ذاك من العلم والتحقيق والتمحيص (١٥) مناداة مخالفيهم في الأعصر الأولى بأنهم يحرفون كتبهم ويبدلونها ويغيرونها كما جاهر بذلك سلسوس الفيلسوف الشهير قبل خمسة عشر وجها مما تنتقد به تلك الكتب وجميعها يتنزه عنها القرآن الشريف . وقد ذكرت عدة من شواهدها بالايجاز في رسالتي التي نشرت سابقا في المنار . ومن أراد الايضاح فعليه بالكتب المؤلفة في هذا الشأن اسلامية كانت أو غيرها عربية أو أفرنجية . والسلام على من اتبع الهدى

(المنار) ذكرتنا هذه المقالة بكتاب تاريخ القرآن والمصاحف الذي يؤلفه صاحبنا موسى افندي جار الله الروسي وانا وعدنا عند ذكره في آخر جزء من السنة الثامنة بالعودة الى تقريظه وكذا نسينا الكتاب والوعد وقد أوضح مسألة جمع القرآن وأطال في بيان حفظه وعدم ضياع شيء منه وسننقل منه ذلك في الجزء الآتي

﴿ أصول الاسلام ﴾

(كلمة انصاف واعتراف)

يرى الناقد البصير أن ما كتبته في هذه المسألة ينحصر في بحثين — بحث في السنة القولية وبحث في السنة العملية ثم يرى أن الرادين علي لم يأتوا بشيء في المبحث الأول يشفي عليلا أو يروي غليلا . وأن أستاذنا الكبير ومصلح الاسلام المعظم السيد محمد رشيد يوافقني في هذا البحث بل هو مرشدي الأول. وأما البحث الثاني (السنة العملية) فالشطط الوحيد الذي ارتكبته فيه على ما أرى هو إنكاري وجوب ما فهم الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم أنه دين واجب ولم يكن مذكورا في القرآن ولكن أجمع عليه المسلمون سلفهم وخلفهم عملا واعتقادا بدون أدنى اختلاف بينهم . وأهم ذلك في الحقيقة مسألة ركعات الصلاة وأرى أن ما كتبه صاحب المنار الفاضل في هذه المسألة كاف في الرد علي فأنا أعترف بخطأي هذا على رؤوس الاشهاد واستغفر الله تعالى مما قلته أو كتبته في ذلك وأسأله الصيانة عن الوقوع في مثل هذا الخطأ مرة أخرى . وأصرح بأن اعتقادي الذي ظهر لي من هذا البحث بعد طول التفكر والتدبر هو : أن الاسلام هو القرآن وما أجمع عليه السلف والخلف من المسلمين عملا واعتقادا أنه دين واجب وبعبارة أخرى أن أصلي الاسلام اللذين عليهما بنيهما الكتاب والسنة النبوية بمعناها عند السلف أي طريقته صلى الله عليه وسلم التي جرى عليها العمل في الدين : ولا يدخل في ذلك عندي السنن القولية غير المجمع على اتباعها ولا ما كان ذا علاقة شديدة بالاحوال الدنيوية كبعض الحدود ومقادير زكاة المال والفطر والأصناف التي تؤخذ منها وغير ذلك مما لم يذكر في الكتاب العزيز . فأبيح بعض التصرف في أمثال هذه المسائل إذا وجد عندنا مقتض وبهذا التقرير تزول جميع الاشكالات التي أوردتها في مقالتي السابقتين . نسأل الله تعالى الهداية في القول والعمل ، والصيان من الشطط والزلل ،

الدكتور محمد توفيق صدقي

الطبيب باسبتاليات سجن طره

(المنار) نحمد الله أن ظهر صدق قولنا في الرجل وأنه معتقد وينفعن ما يظهر له انه الحق